الإنسان والكون والاستخلاف في القرآن الكريم

نحو رؤية إسلاميّة متوازنة

عبد المالك أشهبون ■

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن المقصديات البانية لصرح الآية القرآنية الكريمة التي ختم بها الله ﷻ سورة «الأنعام» وهي قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ...﴾، وما تحمل به من رسائل وتوجيهات وإرشادات ومقاصد تعم مجالات الحياة، سواء تعلّق الأمر بما هو ديني أم اجتماعي أم تاريخي. من هنا جاءت أهمية حرصنا على مقاربة هذه الآية الكريمة من موقع هموم أمتنا العربية الإسلاميّة الراهنة، في شتى مظاهر ضعفها أو قوتها، قصورها أو تفوقها، سلبياتها ونواقصها أو إيجابياتها، من أجل مواجهة تحديات المستقبل.

وآيتنا القرآنية الكريمة مقتطفةٌ من سورةِ «الأنعام»، وهي السُّورةُ السادسةُ في ترتيب المصحف الكريم. عدد آياتها خمس وستون ومائة، وهي مكية، وذات شأن في تركيز الدعوة الإسلاميّة، «تقرر حقائقها وتثبت دعائمها وتفند شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة»[1]. أما بداية السورة الكريمة

1 ـ محمد علي الصابوني: «**صفوة التفاسير**»، الجزء الأول، دار الفكر، بيروت، 2001، ص 349.

■ باحث من المغرب.

فكانت بتوحيد الله جل وعلا في الخلق والإيجاد، وفي التشريع والعبادة، والتذكير بموقف المكذبين للرسل وما حاق بهم، في حين تنتهي السورة بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة؛ وهو أنه خليفته في الأرض، وأن الله ﷻ جعل عمارة الكون تحت يده تتعاقب عليها أجياله، ويقوم اللاحق منها مقام السابق، كما يخبرنا ﷻ ـ في هذه الآية الكريمة ـ انه لم يساوِ «في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي «الابتلاء والاختبار» في القيام بتبعات هذه الحياة، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام»[2].

ومن خلال ما يوحي به مضمون الآية الكريمة من غايات ومقاصد وقضايا، يمكننا الغوص في عوالمها العميقة من خلال محورين بارزين، وهما على النحو الآتي:

أولا: الإنسان والكون في الرؤية القرآنية

لا غرو أن الإسلام جاء برسالة جديدة؛ ابتغاء بناء أمة جديدة، محكومة بشرع جديد، في أفق بناء حضارة جديدة. ومن المعلوم أن الدعوة الإسلاميّة بزغت ـ أول الأمر ـ في شبه الجزيرة العربية، ثم انتشرت لتطول سائر المعمور. هذه الدعوة متعددة المناحي، تشمل الإنسان والكون وغيرهما من المجالات التي لا يسع المقام لذكرها والتفصيل فيها.

1 ـ الإنسان ثمرة شجرة الكون

في هذا المضمار البحثي يهمنا أن نتناول طبيعة الرؤية الكونيّة من المنظور الإسلامي؛ إذ إن العديد من الآيات القرآنية تشير إلى هذه الدينامية الكونيّة، التي تتجلى في مظاهر الطبيعة، بدءًا من خلْق الإنسان من طينٍ، مروراً بما نتج عن تعدد المخلوقات من تكوُّن تجمعات بشرية، متعددة الألوان، مختلفة الأعراق، ومتنوعة الأجناس، وصولاً إلى دينامية هذه المجتمعات في

2 ـ محمد علي الصابوني: «**صفوة التفاسير**»، المرجع السابق، ص349.

الزمان والمكان، وهي الدينامية التي تنتج في سيرورتها حركية تاريخية، تتجلى في تداول الأمم والشعوب على هذه الأرض.

كما تتجلى الرؤية الكونيّة ـ أيضاً ـ في الآيات التي تشير إلى حركية آيات الخلق الطبيعي، من قبيل: ﴿ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [المؤمنون: 80]، و﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ [يس: 38]، وفي ﴿ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا ﴾ [يس: 33]، وفي ﴿ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ ﴾ [لقمان: 31]، وفي نظام الطبيعة حيث لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون... إلخ.

لا غرو أن الإسلام جاء برسالة جديدة؛ ابتغاء بناء أمة جديدة، محكومة بشرع جديد، في أفق بناء حضارة جديدة. ومن المعلوم أن الدعوة الإسلاميّة بزغت ـ أول الأمر ـ في شبه الجزيرة العربية، ثم انتشرت لتطول سائر المعمور.

بالإضافة إلى ما سبق يزخر القرآن الكريم بأسماء كثير مما يدِبُّ في الأرض من عالم الحيوان الأليف كالبقر والأنعام، والمتوحش المفترس كالسبع والذئب، ناهيك عن ذكر أسماء الحيوانات الخادمة للإنسان: كالكلب، والقرد، والفيل... وهي في أغلبها حيوانات مسخَّرة لخدمة الإنسان وحمْلِهِ وحمْلِ مَتاعِه. نحن ـ إذاً ـ أمام لوحة رائعة لعالم الحيوان، وما يؤديه من وظائف حيوية للإنسان، فضلاً عمّا يجب الالتفات إليه، والحذر منه في تعاملنا مع هذه الحيوانات. دون أن يفوتنا التذكير بأن الآيات القرآنية تتسع كذلك ـ في رؤيتها الكونيّة ـ لتشمل التنوع النباتي من خُضرٍ وفاكهةٍ ونخلٍ وحبٍّ ونوى وزيتونٍ ورمانٍ، إضافةً إلى ذكر الحدائق والجنان والتمر والأغصان... إلخ.

وعلى هذا النظام الكوني الدقيق والبديع خلق الله تعالى الإنسان؛ ليكون ثمرة شجرة الكون المبنية، ونواتها المغروسة في الأرض، ثم سخَّر له الطبيعة بوصفها مجاله وبيئته، وهي مخلوقة من أجله، وإن جمالها وأهميتها وعطاءها الحق لن يتجلى إلا إذا سخرها الإنسان، وأعمل فيها عقله ويده. يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [لقمان: 20].

على هذا الأساس فإن كل ما في الطبيعة يخدم منافع الإنسان الذي كرّمه الله على وجه الأرض، وعليه فالطبيعة من غير الإنسان جمادٌ وفوضى وتدمير أحياناً، وهنا يتجسد الإنسان في القرآن بوصفه المحور والغاية في عالم الطبيعة، ومن أجله سخرت الكائنات كلها؛ إذ إن رؤية الإسلام إلى مواصفات المسلم الفاعل ـ لا المنفعل ـ هو أنه لا يرضى بأن تقذِفَ له الأيام بما تشاء من أحداث في طريقه، ولا ينتظر تقلبات الطبيعة والأزمان لتجاوز صروف الدهر وكوارث الطبيعة، بل عليه أن يمسك بعامل الزمن، ويقبض على المستقبل، عن طريق التنبؤ به والتخطيط له، لا عن طريق المصادفات وانتظار المفاجآت حلوها ومرِّها.

وحينما حمل الإنسان الأمانة الكبرى في هذه الأرض، فقد توجَّب عليه أن يفهم نفسه فهماً دقيقاً، وأن يعلم بأن طاقته العقلية الجبارة هي مدار تكليفه. ونتيجة لذلك فإن عليه أن ينظر إلى ما حوله ليجد آيات الله مبثوثة في كل ناحية، وقوانينه ظاهرة على مختلف وجوه الحياة والكائنات، فيتحرك للاستفادة منها، والكشف عنها، وتسخيرها لإسعاد نفسه بإنشاء الحضارة، وبناء الحياة، ودمج الطاقات المفردة بعضها ببعض للقيام بذلك التسخير الضروري[3].

فليست من صفات الإنسان في الإسلام الاستكانة والخنوع، أو كونه آلة تحرّكها عوامل خارجية لا دخل فيها لإرادته، وإنما هو ـ قبل كل شيء ـ المسؤول الأول عن صناعة حاضره ومستقبله، وهو المحرك الأول للحضارة في مرحلة نموها واستمرارها وازدهارها، وفي مرحلة أفولها أيضاً؛ لأنّ الجسد الإنساني مميزٌ بالكمال، مقارنة بأي مخلوق آخر: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4]، ومميزٌ أيضاً بإعمال العقل والتدبر في أمور الحياة؛ ومن ثم فهذا التقويم العقلي نعمةٌ إلٰهيةٌ تستوجب الشكر والإيمان بأهميتها، ومن خلالها يمكن للمسلم التأثير في مجرى النظام الكوني الدقيق، لا من خلال إعادة إنتاج نموذج الفكر الخرافي والأسطوري في مواجهة تقلبات الطبيعة وكوارثها.

3 ـ محسن عبد الحميد: «**الإسلام والتنمية الاجتماعية**»، مجلة المناهل، العدد 27، السنة العاشرة، يوليو 1983، ص 271.

2 ـ آفة انتشار الوعي الخرافي في الأمة

إذا نظرنا إلى القرون الثلاثة التي امتدت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ـ والتي هي عصرنا المظلم، الذي توسط بين قديم خصبٍ، وحاضرٍ يحاول أن يكون خصباً ومتطوراً ومزدهراً ـ سنجد أن المسلمين في هذه المرحلة المظلمة كأنهم عجينة بشرية واحدة، تجانست أجزاؤها جهلاً وخرافة وتأخراً، بحيث أضحت حالتهم صعبة الخلخلة والحراك، لتخلد إلى الجمود والتقليد، وتعطيل العقل وتغييبه، بل والتآمر عليه لاغتياله، مستندة في كل ذلك إلى أسس من الوعي الغيبي، والادعاءات الخرافية.

ليست من صفات الإنسان في الإسلام الاستكانة والخنوع، أو كونه آلة تحرّكها عوامل خارجية لا دخل فيها لإرادته، وإنما هو ـ قبل كل شيء ـ المسؤول الأول عن صناعة حاضره ومستقبله، وهو المحرك الأول للحضارة في مرحلة نموها واستمرارها وازدهارها، وفي مرحلة أفولها أيضاً.

وحتى لا يكون نقاشنا غير واضح ولا محتملٍ، فإن ما نعنيه بثقافة الخرافة، هو ذلك النوع من الثقافة الذي يحارب العقل، ويخاف استعماله. غير أنه لا تصنع الخرافة من عدم، وإنّما تتأسس على تأويل بُعد رمزي ظاهري، أو نصّ تأسيسي أُسيء استغلاله عمداً أو جهلاً، ما يجعلها قابلة للتصديق والاعتقاد، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أنه مع انتشار وباءٍ ما في المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، تعلو أصوات كثير من المسلمين بكون ذلك الوباء إما عقاباً إلٰهياً سلَّطه اللّٰه على الإنسان قاطبة، أو أن هذا الوباء هو «جند من جنود اللّٰه في محاربة الكفار والزنادقة والأشرار»، وهلم جرّاً من التأويلات الغريبة والطريفة، فبموجب هذه التصورات الخرافية فإن الشرور التي تحيق بالإنسان «والأمراض والكوارث الطبيعية وغيرها ـ مما يصيب الأتقياء والجاحدين على حد سواء ـ هي غضب الآلهة وعقاب على آثام اقترفت في حقها»[4].

4 ـ عبد المجيد حيمر السفياني: «**الفلسفة واللاهوت: من التوظيف إلى التحويل**»، مجلة «النهضة» (المغرب)، العدد السابع، شتاء 2014، ص185.

هكذا نجد أنفسنا أمام خليط عجيب من التصورات الخرافية التي لا تعتمد على تفسير علمي منطقي لما يقع في علاقة الإنسان بالطبيعة، وهو خليط يدل على أننا لم نستفق بعد من هولِ الصدمة التي اصطدم بها الفكر العربي الإسلامي بالفكر الغربي الحديث، كما يدل على أن هذه الفترة قد امتدت بنا كل هذا الزمن دون أن تلد المواطن العربي المسلم الجديد، بمواصفات العصر الحديث على مستوى الفكر والمعرفة والثقافة.

لكن بناء المسلم الجديد لن يتم إلا إذا أضاف إلى نفسه صفات جديدة إيجابية، وتخلى عن كل الصفات السلبية العائقة لنهضته وتطوره. وإن أبرز هذه الصفات وأعمقها جذوراً هي نظرة المسلم إلى العلاقة بين الأرض والسماء، بين الخالق والمخلوق، بين الواقع والمثال، بين المعقول والمنقول، ومفاد هذه النظرة «أن السماء قد أمرت وعلى الأرض أن تطيع، وأن الخالق قد خطَّ وعلى المخلوق أن يقتنع بالقسمة والنصيب، وإذا ما تعارضت الآخرة والدنيا كانت الآخرة أحق بالاختيار، وأن المنقول إذا ما تناقض مع المعقول، ضحينا بالمعقول ليسلم المنقول»[5]. بهذا المنظور المغلق إلى العالم يتم تكريس ثقافة النفس المطمئنة، وهي الثقافة التي لا تنظر إلى هذه الحياة الدنيا إلا على أساس أنها (معبر إلى الآخرة)، لذلك وجب الانصراف عنها، وعن أدرانها إلى الاستغراق في العبادات دون ربطها بالعمل، مع العلم أن الحياة الراكدة الآسنة لا تحمل الجديد، وأن التحرك والعراك والمغالبة هي التي تحمل على راحاتها عوامل العطاء والخصب والسمو.

وبطبيعة الحال لا تستند هذه التصورات على منطق التفكير النقدي ولا العلمي في تفسير مظاهر الطبيعة وتقلباتها، لذا تحتاج منا تأويلاً جديداً مضاداً يشكل كاسحةَ ألغامٍ متعددة الواجهات، ذلك ما يمكن أن يمهد الطريق لبناء صرح أمة العلم، وإنسان المعرفة، بتحصين موضوع تفسير تحولات الطبيعة من الخوارق والخرافات.

5 ـ زكي نجيب محمود: «**ميلاد جديد**»، مجلة «مواقف»، بيروت، العدد الأول، السنة الأولى، أكتوبر ـ نوفمبر 1968، ص 9.

تلك هي الحلقة الأولى التي تلزم عنها حلقة ثانية، وهي أن قوانين الأشياء والظواهر في الطبيعية ـ ومن منظور الفيلسوف والمفكر (زكي نجيب محمود) ـ قد تطَّرد أو لا تطَّرد، بحسب ما يشاء لها الحكم السماوي المطلق. فليقل العلمُ في ذلك ما أراد. ليقل بأن قوانين المطر هي كذا وكذا، وأن قوانين هبوب الرياح هي كيت وكيت. ليقل بأن الجرثومة الفلانية قاتلة، وأن العلة الفلانية تستلزم معلولها. نعم ليقل العلم ما أراد أن يقوله في أشياء الطبيعة وظواهرها ـ بما في ذلك الإنسان ـ «وسيظل الحكم الحاسم للمشيئة الإلٰهية آخر الأمر، فتتوافر الظروف التي يقول العلم عنها أنها تقتضي نزول المطر، ومع ذلك لا ينزل، أو تتوافر تلك الظروف الضرورية، ولكن يشاء الله فتتفجر السماء بمدرار من الماء»[6].

إنّ السماء قد أمرت وعلى الأرض أن تطيع، وأن الخالق قد خطَّ وعلى المخلوق أن يقتنع بالقسمة والنصيب، وإذا ما تعارضت الآخرة والدنيا كانت الآخرة أحق بالاختيار، وأن المنقول إذا ما تناقض مع المعقول، ضحينا بالمعقول ليسلم المنقول.

كل هذه التفسيرات الخرافية تتفق جميعها على غياب التفسير العقلي وانعدام الرؤية العلمية، وحضور أنماط بدائية من الوعي الخرافي الذي ينتمي لأزمنة القرون الوسطى، لذلك لا نُفَاجأُ ونحن نستمع إلى من يشير علينا بدور السحر، ومن ينظر إلى السماء طوال الوقت في انتظار صاعقة تمحو كل شيء. فلا يمكن لمن أوتي حظاً ولو قليلاً من القدرة على التفكير ألا يتساءل ـ إذ ينظر إلى حال المسلمين اليوم ـ: ما الذي جرى حتى صار الإسلام رديفاً للخرافة والجهل؟ وهل فكرنا لماذا تنتشر الخرافات كلما حدث اضطرابٌ طبيعيٌّ ما في العالم، أو كلما انتشر وباء، أو اشتعلت حرب، أو حدثت معاناةٌ ما، وجدنا من يخرج علينا بأضاليل أقل ما توصف به أنها من أساطير الأولين؟

لو تأملنا هذه الحالة وفكرنا في الأسباب التي تعمل على انتشار مثل هذه الأفكار الغريبة؛ لوجدنا أن هذا السبب مرتبط بفكرة الإيمان الراسخ بالخرافة

6 ـ زكي نجيب محمود: «**ميلاد جديد**»، المرجع السابق، ص9.

بدل العلم؛ لأنه من المستحيل أن تجمع بين الرؤية الغيبية والرؤية العلمية، فالعلم يعني المنطق والبحث عن دليل واضح، والخرافات عكس ذلك تماماً؛ لأنها تعني الشيء غير الطبيعي، ومن ثمة فالخرافة تعني عدم وجود أصل لما نقوله؛ إنها الشيء المستتر بعيداً، الذى يجعلنا نفتح أفواهنا دهشة وفزعاً وقلة حيلة. وهنا نورد رأياً سديداً لـ(ابن الجوزي) يُقرُّ فيه أن «في التقليد إبطالاً لمنفعة العقل؛ لأنه إنما خُلِق للتدبر والتأمل، وقبيحٌ ممن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلام»[7].

بالطبع فإن التفكير بمنطق الوعي الخرافي سوف يعني غياب المسؤولية وتكريس النزعة الاتكالية، ومن هنا لن نشعر بالذنب، سنقول بأن زمام الأمور ليست في يدنا، وبأن الحال في علم الغيب ونحن لا نعلمه، وهنا لا يكون وعينا شقياً، نقدياً، بل مطمئناً، راضياً بما هو كائن، منتظراً الآتي دون تخطيط له، وسنجلس في بيوتنا وندعو الله فقط بأن ينقذنا من هذا الوباء أو الجائحة أو الكارثة؛ إذ إن كثيراً من الأفكار الخرافية التي تحيط بنا مصدرها المصلحة الشخصية لبعض الذين يعلمون الحقيقة، لكنهم لو قالوها سوف يدفعون الثمن، وهم لا ينوون فعل ذلك، لذا يسوقون لنا هذه الخرافات علها تشغلنا عن البحث خَلْفهم، ومحاسبتهم عن خطاياهم العديدة.

ولئن كانت الصورة الكونيّة من منظور المسلم ـ لا الإسلام ـ بهذه السلبية، فمن المؤكد أنها ستنعكس على حياة الإنسان في مجتمعه، من خلال علاقة الحاكم بالمحكوم، حيث يغدو الحاكم هو الآمر الناهي، وهو المالك بزمام السلطة المطلقة، وما على المحكومين إلا أن يطيعوه، لا لشيء إلا لأنه قَدَرُهُم الذي لا فكاك منه، ما دام يعدّ نفسه الحاكم بأمر الله، الأمر الذي يُعطيه صفة القداسة، ومن ثم وجوب الطاعة. وهو بهذا الصنيع يضع نفسه فوق الشعب وفوق النظام والقانون، ويتخذ صفة الإلٰه الصغير.

7 ـ عبد الرحمٰن بن الجوزي: «**تلبيس إبليس**»، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (ب ت ن)، ص 80.

فما أشـد بؤس المستمسـكين بثقافة النفـس المطمئنة فـي مجتمعاتنا الإسلاميّة، فقد وصل بهم هذا البؤس إلى أن يصبحوا في طليعة مقاومة الفكر النقدي، بما أشـاعوه بينهم مـن وعي مقلـوب، تعطل معها عقلهـم، في ظل ما أوصلتهم إليه سيادة قيم الانتظارية والتواكل؟

هذه التصورات المفارقة للواقع وغيرها: من أسـباب جمود العقل العربي الإسـلامي، ووقوعه في التقليد والاجترار الأعمى. وهي تصـورات أبعدَتْنا عن المعاني الربانية المتجددة تجـدُّد الزمان والمكان، رغم أننـا كلنا نُقرُّ بأن القرآن الكريم كتـابُ هدايةٍ، صالح لـكل زمان ومكان، لكننا ـ مع الأسـف الشـديد ـ ما زلنـا نتعامل معـه ونقـرأه بعيون الأوليـن، وباجتهاداتهـم، وهم مأجـورون عليها، وليس غرضي الدعوة إلـى القطيعة مع اجتهادات العلماء الأولين، وإنما الغـرض الدعوة إلى تأمل القرآن في ضوء السـنن الكونيّة، وما استجد من معانٍ علاماتُها بارزة لكل ذي فكر متدبر.

إنّ صورة الإنسان في القرآن هي «صورة الكائن الفريد الذي يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية ـ بعد الله ـ في هذا الكون. وبناء عليه، فلا منازع له على الإطلاق في تأهله لإدارة شؤون هذا العالم، وأخْذ مقاليد السيادة (الخلافة) فيه».

ثانيا: الاستخلاف والسنن الطبيعية والاجتماعية في الرؤية القرآنية

تحتل قضية الإنسان مكانة مرموقة في القرآن الكريم، وتبرز هذه القضيـة بصورتها البهية في كثير من الآيات القرآنية، وبالأخص في آيات بعينها، سواء أكانت تلك الإشارات واضحةً وجلية، أو بالغة الكثافة واللمـح المضيء للوجوه المختلفة التي جرى فيها التعبير عن قضية الإنسان واسـتخلافه في الأرض. وبعبار أخرى: فصورة الإنسان في القرآن هي «صورة الكائن الفريد الذي يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية ـ بعد الله ـ في هذا الكون. وبناء عليه، فلا منازع له على الإطلاق في تأهله لإدارة شؤون هذا العالم، وأخْذ مقاليد السيادة (الخلافة) فيه»[8].

8 ـ محمود الذاودي: «**الثقافة بمنظور إسلامي مختلف**»، مجلة التفاهم، العدد 64، السنة السابعة عشرة، ربيع 2019، ص 336.

ولندع آيات القرآن الكريم تُشخِّص لنا بقوة تلك المكانة الفريدة التي يتمتع بها الجنس البشري وحده بين الكائنات الأخرى بصفته مستخلفاً في الأرض، حيث ورد مصطلح «خلائف» أربع مرَّات:

ـ قال الله جلَّ شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165].

ـ وقال جلّ ذكره: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 14].

ـ وقال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [يونس: 73].

ـ وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ [فاطر: 39].

ولقد كان هذا المصطلح القرآني (خلائف) مرتبطاً في ذِكْره بقضية محددة من قبيل:

1 ـ الاختبار والابتلاء:

توحي الآية الكريمة بأن الله تعالى أهلك أقواماً من قبلنا، واستخلفنا بدلاً عنهم، حيث جعلنا خلائف في الأرض نعمرها بعدهم.

ـ قال الله جلَّ شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: 13].

ولقد جرت العادة أن يذكِّرنا القرآن الكريم بما أصاب أمماً غابرةً من قبلنا من جراء عقاب إلٰهي سُلِّط عليهم، ولقطع دابر الشر السائد في نفوسهم كان لا بد من أن يهلكهم، ويستخلف آخرين من بعدهم في الأرض ليأخذوا العبرة مما أصاب غيرهم وينشروا الخير بينهم. وهنا يحق لنا أن نتساءل: بعد كل هذه القرون التي تفصلنا عن تلك الأمم التي أهلكها الله هل اتعظ الخلف مما جرى للسلف من هلاك؟

إن نظرة سريعة إلى كل بعض صفات الإنسان في القرآن الكريم تُظهر ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً، وهلوعاً، وعجولاً، ولِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وأنه لَيَطْغَىٰ أن رآه استغنى، وأنه لَظَلُومٌ، وكَفَّارٌ... وبعبارة أخرى: إن الإنسان هو أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلاً؛ مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54].

باختصار شديد: إن آفة الإنسان هي النسيان؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]؛ لأن درجة استفادته من قصص الأولين كما هي مبثوثة ـ مثلاً ـ في القرآن الكريم لم تكن في مستوى ما هو مطلوب بأن تكون تلك القصص مأخذ عبرة، أو موضع قدوة، أو مَجلاة حكمة، وإيمان الناس بأنها صادرة من ذلك المقام الأسنى يجعل لها في قلوبهم مكانة محفوفة بالإجلال، فيتدبروا ما حصل في الماضي؛ كي يتجنبوا وقوع الأخطاء مرة أخرى؛ لأن أخطاء الماضي هي دروس في الحكمة؛ إذ من الغباء أن يدفع الإنسان ثمن الخطأ الواحد مرتين؛ لكن الذين لا يتذكرون الماضي، ولا يتعظون من دروسه، مآلهم إلى تكرار الأخطاء والوقوع في الفخاخ نفسها.

لقد جرت العادة أن يذكِّرنا القرآن الكريم بما أصاب أمماً غابرةً من قبلنا من جراء عقاب إلٰهي سُلِّطَ عليهم، ولقطع دابر الشر السائد في نفوسهم كان لا بد من أن يهلكهم، ويستخلف آخرين من بعدهم في الأرض.

2 ـ الاستخلاف في الأرض مرهون بالعمل

كما سبق القول من قبل، يحتل الإنسان في التصور الإسلامي مرتبة متميّزة، فقد حباه اللّٰه تعالى بقدرات جسدية وذهنية أهلته لتحمل مسؤولية الخلافة، غير أن تحمل هذه المسؤولية على الوجه الأكمل لا يتم إلا من خلال العمل الجاد والبحث والاكتشاف قصد تسخير مؤهلات الأرض لما فيه خير للبشرية، وبالمقابل يجب على المسلم الحذر من الزهد والسلبية؛ لأنهما

يتنافيان مع المسؤولية المنوطة به. ومتى استطاع الإنسان تأدية ما عليه من واجبات في ظل خلافته للأرض حقّ له حينئذ التمتع بحقوقه الأساسية كاملة غير منقوصة.

ولقد خص الإسلام الإنسان بأدق تنظيم، ويبرز ذلك على وجه الخصوص في موقف الإسلام من العمل ورأس المال، أما موقفه من العمل فهو نابع من فكرة الاستخلاف في الأرض؛ لأنها لن تتحقق إلا بالحركة والتغيير والعمل الدؤوب؛ مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14]؛ إذ إن الإنسان المستخلف يثبت خلافته في الأرض من خلال العمل المنتج بجهده وعرق جبينه، لذلك حرم عليه مال الغير، كما جاء في خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «**أيها الناس اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلّغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كلّ رباً موضوعٌ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون**».

فهذه الخطبة تلخص لنا جانباً من النظام الاقتصادي الإسلامي الذي ينطلق من المقاصد العامة للشريعة الإسلاميّة، وهي جلب المصالح إلى الناس ودرء المفاسد، وترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتقديم الحاجات الضرورية للإنسان الذي كرمه الله ومنع استغلاله بأي شكل من الأشكال ورفع التعسف في استعمال الحقوق.

وعليه فالعمل عبادة عند الله تعالى ورسوله ﷺ، وإننا مأمورون دينيّاً أن نتحرك، وأن نسعى من أجل كسب الرزق الحلال، وإننا سنحاسب إن فرطنا وقصرنا في ذلك. فقد رَوى ابنُ حِبَّانَ والترمذيُّ في جامِعِه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**لا تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن أربعٍ عَن عُمُرِه فيما أفناهُ وعن جسدِهِ فيما أبلاهُ وعن عِلمِهِ ماذا عَمِلَ فيهِ وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ**».

ومن التصورات المتقدّمة في هذا الصدد نورد رأيا لـ(إخوان الصفا)، يرون فيه أن العمل يتصل بالعلوم التطبيقية، من هنا جاء تأكيدهم على أصالة الطابع الاجتماعي لكل نشاط الإنسان، وأن لا سعادة أخروية للإنسان منعزلة عن نشاطه الاجتماعي لخير حياته الدنيوية، بعكس الصوفية الذين كان التفكير التأملي يستقطب كل طاقاتهم، ويدعون للانصراف عن كل نشاط اجتماعي؛ توسُّلاً لبلوغ الصفاء النفسي وسعادة الدارين... كما يؤكدون (إخوان الصفا) أن قيمة العمل وتقسيمه أساس تقدّم المجتمع وهنائه، ويحثون على كل الحوافز المادية كأساس لإنجاز العمل وإتقانه.

وهذا الموقف يعني زوال نظرة الاحتقار إلى العمل اليدوي، وإلى الفئات الاجتماعية التي تمارس هذا العمل، وأخيراً رؤيتهم إلى ذوي الصنائع؛ أي الفئات التي تخلق للمجتمع حاجاته المادية، نظرتهم إلى قوة أساسية تضع للمجتمع قاعدة صيرورته مجتمعاً بالفعل[9].

لقد خص الإسلام الإنسان بأدق تنظيم، ويبرز ذلك على وجه الخصوص في موقف الإسلام من العمل ورأس المال، أما موقفه من العمل فهو نابع من فكرة الاستخلاف في الأرض؛ لأنها لن تتحقق إلا بالحركة والتغيير والعمل الدؤوب.

وهنا وجب التذكير أن الله تعالى شاءت حكمته أن تكون الموارد على الأرض اقتصادية الطابع؛ أي إنها نادرة، ولا تكفي حاجات المستخلفين التي تزداد وتتطور؛ ومن ثم سوف يجد المستخلفون أنفسهم مضطرين إلى ديمومة العمل لتطوير وتنمية هذه الموارد؛ لكي تكفي احتياجاتهم، من هنا جاءت أهمية ربط العمل بالعبادة.

ولأن هذه الخلافة في أساسها حركة مستمرة، ومواجهة لأقدار الحياة ومشاكلها؛ فقد تنبه الإسلام إلى أن قيمة الإنسان في قيمة ما يعمل، وأن السلبية والزهد في الحياة مناقض لتلك الحركة الإنسانية الكونيّة، من خلال العمل الصالح، على أن الإسلام لا يجعل هذا التنافس قاصراً على المسلمين؛

9 ـ علي سعد: «حسين مروة في نشيد العقل والفعل الإنساني»، مجلة «الطريق» العددان: الثاني/الثالث، بيروت، يونية/يونيو 1988، ص 160.

وإنما يهم كافة الأفـراد الذين ينتمون إلى المجتمع نفسـه، مسـلمين وغير مسـلمين، ودعوتهم إلى الانخراط فـي التنمية الاجتماعيـة، وبناء الحضارة الإنسانية، «طالما أن الخليفة هو الإنسان عامة وليس المسلم فحسب»[10]؛ لأن الرؤية الإسلاميّة في هذا الصدد ترى أن الاستخلاف مرتبط بالحث على العمل الدؤوب. وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: 26]. بل نجد أحياناً أن الإسـلام ليبلغ في تعظيم شـأن العمل إلى الحد الذي يراه الأساس الذي يستحيل قيام الدين دون توافره للإنسان، فعليه يتوقف الإيمان، ومن ثم التدين بالدين. أوليس العمل عبادة؟!

ومن الحقائق الشاهدة على ذلك ـ من الماضي والحاضر ـ أن سمات المجتمع العربي الإسلامي كانت ـ في أغلب الأحيان ـ سمات إنسانية. فقد بنى الدولةَ العباسـية في عصرها الذهبي العربُ والفرس وغيرهما، من منطلق تكافؤ الفرص بين المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي. أما في المجتمعات المعاصرة فلا يمكن الحديث عن مجتمعات إسلاميّة صافية، بل نجد في كثير من البلدان العربية أقليات عرقية غير مسلمة، فاعلة في تطور المجتمـع، ولها دور وطني في التاريخ المعاصر، سـواء في مواجهة الاسـتعمار، أو في التنمية الاجتماعية عامة، مثل المسـيحيين في العراق والأقباط في مصر واليهود في المغرب... إلخ. وعليه لا مجال لتأكيد حجية إقصاء شـركاء الوطن من غير المسـلمين من هذه الدينامية المجتمعية، ومن يقول غير ذلك فله في سيرة الرسول ﷺ عبرة؛ لأنه لم يكن مبعوثاً إلى العرب خاصة، وهذا «تلبيس من إبليس اسـتغفلهم فيه؛ لأنه متى ثبت أنه نبي فالنبي لا يكذب، وقد قال: «**بُعثت إلى الناس كافة**»، وقد كتب إلى قيصر وكسرى وسائر ملوك الأعاجم»[11].

وبالعودة إلى واقع الأمة العربية الإسلاميّة يتضح لنا أن حالنا كمن لم يستفد بعد من دروس القرآن، وما جرى للأمم الغابرة من جراء استبداد

10 ـ محسن عبد الحميد: «**الإسلام والتنمية الاجتماعية**»، المرجع السابق، ص273.

11 ـ عبد الرحمٰن بن الجوزي: «**تلبيس إبليس**»، المرجع السابق، ص72.

حكامها وتجبرهم، وفساد أهلها وجورهم. فها نحن أولاء نجد أنفسنا في مواجهة حادة مع دعاة التقليل من قيمة الإنسان، والحط من قدراته وإمكاناته، والاستراحة إلى كل ما يجعل الإبداع مستحيلاً، والثقة بأن الكون ـ بما فيه الإنسان ـ يتراجع ولا يتقدّم، وأن الإنسان يقبح ويرذل، بل ويزداد قبحاً يوماً بعد يوم. وهذا يعني: الإصرار على إعادة إنتاج منظومة التفكير نفسها التي ولدت لدينا والوعي الخرافي والأسطوري والغيبي، وهمشت التفكير العقلي والعلمي، وهو إصرار على الخطأ والمكابرة، فيه دليل على التمسك بالماضي، والعجز عن إدراك رؤى المستقبل، وإقفال الطريق أمام المستقبل.

إذا أردنا تحقيق النظرة العلمية الإسلاميّة للتنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فما علينا إلا أن نعيد دراسة المبادئ والتعاليم التي أتى بها القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة الشريفة في ضوء الواقع الاجتماعي المعاصر.

وما ينبغي أن تدركه مجتمعاتنا العربية الإسلاميّة هو أن التقدّم الحضاري أصبح قضية مصيرية في حياتها، وأنه في سبيل تعويض ما فاتها في الماضي القريب ـ بفعل عوامل التخلّف المتنوعة ـ عليها الاعتماد على خطط التنمية الاجتماعية المبنية على أسس علمية سليمة؛ لتفجير طاقات الإنسان المسلم وقدراته؛ لكي يشترك بقوة في بناء حياته ومجتمعه من جديد، وأنه لن ندخل العصر، ونؤكد انتماءنا إلى مرحلتنا الراهنة من التاريخ الإنساني ما لم نثبت انتماءنا إلى ثقافته التي ورثت أعظم ما يحمله التراث الإنساني في شتى الميادين. ربما يجعلنا ذلك نتأمل في أنفسنا، ونقوم بنقدها على نحو جذري؛ كي نعرف مكامن الخلل في قيمنا وسلوكنا ونظامنا التربوي، ولكي نُحاول اللحاق بمتطلبات عصر لن يقف منتظراً أن نجهز لدخوله.

في خاتمة هذه البحث نشدد على أنه إذا أردنا تحقيق النظرة العلمية الإسلاميّة للتنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فما علينا إلا أن نعيد دراسة المبادئ والتعاليم التي أتى بها القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة الشريفة

في ضوء الواقــع الاجتماعي المعاصــر[12]، خلالها يمكننــا إدراك قدرة القيم الإسلاميّة، وملاءمتها، ومرونتها في إحداث التنمية الاجتماعية والاقتصادية في كل زمن ومكان. تلكم هي رســالة الإسلام ورؤيته للإنســان قاطبة، وهذا هو جوهر نظرة الإسلام ـ التي لا تتغير ـ لقضايا الإنسان الاجتماعية والاقتصادية التي تتغير. إنها نظرة لتجدد الإنســان في كل زاوية من زوايا حياته، في ظل الرؤية الشاملة لآيات تطوره الكوني.

12 ـ محسن عبد الحميد: «**الإسلام والتنمية الاجتماعية**»، المرجع السابق، ص 269.